Architecture and Planning Journal (APJ)

Volume 21 | Issue 1
ISSN: 2079-4096

Article 8

January 2010

عمارة المناطق المتوافقة والمتجانسة عمرانياًبين متطلبات الحاجة والحفاظ على القيم المعمارية

علاء الدين عادل الألفي
أستاذ مساعد بقسم العمارة كلية الفنون الجميلة ـ جامعة الإسكندرية., alaaeldien.elalfy2al@exu.edu.eg

Follow this and additional works at: https://digitalcommons.bau.edu.lb/apj

Part of the Architecture Commons, Arts and Humanities Commons, Education Commons, and the Engineering Commons

Recommended Citation
الألفي, علاء الدين عادل (2010) "عمارة المناطق المتوافقة والمتجانسة عمرانياًبين متطلبات الحاجة والحفاظ على القيم المعمارية," *Architecture and Planning Journal (APJ)*: Vol. 21 : Iss. 1 , Article 8.
Available at: https://digitalcommons.bau.edu.lb/apj/vol21/iss1/8

www.manaraa.com

عمارة المناطق المتوافقة والمتجانسة عمرانياًبين متطلبات الحاجة والحفاظ على القيم المعمارية

Abstract

شهد القرن العشرون نهضة تكنولوجية ضخمة، وحمل معه التيارات الفكرية التي غيرت مجرى كافة المجالات. وفي ظل هذه الثورة لا يجب أن تبقى المناطق التراثية التي تميزت بالتجانس المعماري والعمراني منعزلة يخيم عليها الانغلاق والتأخر. فقد أصبح مبدأ توفيق العمارة والعمران للمناطق التراثية عبئاً مشتركا لإيجاد التنسيق بين متطلبات العصر الحديث والحفاظ على التراث والقيمة وتجانس هذه المناطق. يتناول البحث أسلوب "التوفيق" من المنظور البيئي والمحلى لعمارة المناطق المتجانسة عمرانياً من خلال البحث في مفهوم التراث العمراني، وكيف يكون الإدخال الطبيعي لأعمال جديدة لينتج كل مرة تركيبيا جديدا يكون مقبولاً إذا كانت هذه الإضافة لها قيمتها. ثم ينطلق البحث إلى إشكالية التأصيل والتحديث في تلك المناطق والتحقيق في مسألة " هل التحديث هو الاستحداث المطلق، أم تطوير واستكشاف المخزون وإعادة صياغته وفقاً لمعطيات العصر؟ وذلك من خلال مجموعة من التساؤلات: - ما هو سبب عدم التوافق البيئي؟ - ما مدى قدرة عمارة المناطق التراثية على استيعاب التكنولوجيا المتقدمة والاستفادة منها في تحقيق مخطاطتها الإنمائية؟ - كيف يمكن تحقيق التوافق في التفاعل مع محققات العالم المتقدم واختيار التقنيات المتوافقة مع ظروف وقدرات هذه المجتمعات بحيث تسهم في دعم امكاناتها وتحقيق أهدافها؟ كما يعرض البحث أمثلة من المدن والمناطق التراثية بمصر والعالم، والتي تتعاظم فيها الحاجة إلى الحفاظ على تلك المناطق وتوفيق عمليات هذا الحفاظ لزيادة فاعليتها وإعادة صياغتها وطرحها.

This article is available in Architecture and Planning Journal (APJ): https://digitalcommons.bau.edu.lb/apj/vol21/iss1/8

www.manaraa.com

عمارة المناطق المتوافقة والمتجانسة عمرانياً
بين متطلبات الحاجة والحفاظ على القيم المعمارية

الألفي، علاء الدين عادل[1]

ملخص البحث

شهد القرن العشرون نهضة تكنولوجية ضخمة، وحمل معه التيارات الفكرية التي غيرت مجرى كافة المجالات. وفي ظل هذه الثورة لا يجب أن تبقى المناطق التراثية التي تميزت بالتجانس المعماري والعمراني منعزلة يخيم عليها الانغلاق والتأخر. فقد أصبح مبدأ توفيق العمارة والعمران للمناطق التراثية عبئاً مشتركا لإيجاد التنسيق بين متطلبات العصر الحديث والحفاظ على التراث والقيمة وتجانس هذه المناطق. يتناول البحث أسلوب "التوفيق" من المنظور البيئي والمحلى لعمارة المناطق المتجانسة عمرانياً من خلال البحث في مفهوم التراث العمراني، وكيف يكون الإدخال الطبيعي لأعمال جديدة لينتج كل مرة تركيبيا جديدا يكون مقبولاً إذا كانت هذه الإضافة لها قيمتها.

ثم ينطلق البحث إلى إشكالية التأصيل والتحديث في تلك المناطق والتحقيق في مسألة " هل التحديث هو الاستحداث المطلق، أم تطوير واستكشاف المخزون وإعادة صياغته وفقاً لمعطيات العصر؟ وذلك من خلال مجموعة من التساؤلات:

- *ما هو سبب عدم التوافق البيئي؟*
- *ما مدى قدرة عمارة المناطق التراثية على استيعاب التكنولوجيا المتقدمة والاستفادة منها في تحقيق مخططاتها الإنمائية؟*
- *كيف يمكن تحقيق التوافق في التفاعل مع محققات العالم المتقدم واختيار التقنيات المتوافقة مع ظروف وقدرات هذه المجتمعات بحيث تسهم في دعم امكاناتها وتحقيق أهدافها؟*

كما يعرض البحث أمثلة من المدن والمناطق التراثية بمصر والعالم، والتي تتعاظم فيها الحاجة إلى الحفاظ على تلك المناطق وتوفيق عمليات هذا الحفاظ لزيادة فاعليتها وإعادة صياغتها وطرحها.

المقدمة

المدينة هي ذلك التشكيل العمراني والمعماري المركب والمنشأ على موقع جغرافي تم اختياره بمعرفة فرد أو جماعة لمميزات طبيعية أو لظروف تاريخية أو لاعتبارات روحية ووجدانية أو بقررات سيادية. وهى تجسيم إبداعي متناغم لتفاعل اجتماعي اقتصادي ثقافي مستمر، ليكون بيئة مادية من صنع الإنسان، يضعها في رحاب البيئة الطبيعية التي من صنع الله عز وجل. والمدينة بصورة أخرى هي المنطلق لغريزة البناء لدى الإنسان ونتاج التفاعل بين ذكائه مع البيئة الطبيعية لمواجهة متطلبات حياته المادية والروحية وهى أيضاً المرآة العاكسة لصورة المجتمع والسجل الصادق لتاريخه والموئل الذي يحتمي به وينتمي له ويمنحه هويته (عاشور، ١٩٩٨). ولقد سطر التاريخ على أرض مصر صفحات ترجع إلى بداية استقرار الإنسان وتوالت عليها الحضارات مخلفة وراءها تراثا هو نتاج هذا التفاعل السابق. ولذا نادى بعض النقاد والفنانين في أوائل القرن العشرين بضرورة وقوف العمارة الحديثة إلى جانب العمارة القديمة في بيئة واحدة، مؤكدين أن التطور التاريخي للمدينة سيستمر بهذه الطريقة مع الاحتفاظ بجمال المناطق التراثية من المدينة.

ونود أن نشير هنا إلى ما نادى به فيكتور هورتا* بعدم عزل المناطق التاريخية وأنه من الممكن أن يكون هناك توافق بين المناطق التراثية وبين البيئة الحديثة، بشرط أن يواجه الحديث الذي يتواجد مع القديم المشكلة بمنهجية، وأن عامل الحفاظ على القديم أهم من عامل خلق الجديد. ونحن عندما نتحدث عن المحيط التاريخي بالمدينة ونتناوله بالدراسة والبحث، يعنى أننا نعترف بعدم وجود تناسق في عمارتنا المعاصرة، وبتشتت الآراء والعشوائية، وبعدم وجود طراز محدد، ذلك الطراز الذي كان له وجوده يوما ما، مما أوجد حينذاك تناسقاً كاملا سواء في جميع أجزاء ومباني المدينة. فنحن مازلنا نستوحى من كل الطرز المعمارية القديمة، بل ونحاول تقليدها ونرمم تراث كل العصور، وكثيراً ما نفسد ونخرب المحيط التاريخي بقصد تحسينه

[1] أستاذ مساعد بقسم العمارة كلية الفنون الجميلة ـ جامعة الإسكندرية

Published by Digital Commons @ BAU, 2010
www.manaraa.com

وتجميله والارتقاء به وجعله متفقاً مع المســـتجدات الحياتية الجديدة، وأحياناً يحدث هذا دون منهج محدد، ودون معرفة عميقة بالمشـــاكل المرتبطة بعملية خلق البيئة العمرانية المتجانســـة بالمدينة. فنجد من يدعو إلى القديم والعودة الكاملة إلى الوضـــع الأصلي بغير تحوير أو تبديل باعتباره الأصلح والأنسب ولكونه نابعاً من البيئة وملائماً للناس ذوقاً وتقاليداً.

وأحياناً نجد من يدعو إلى الجديد ونبذ القديم لمواءمة الجديد لكل ما جد في حياة الناس من المتغيرات الثقافية والاجتماعية، ولأسـلوب حياتهم فهو يمثل هذه الدعوة المعاصـرة بكل جوانبها، وأحياناً أخرى نجد من يدعو إلى القديم مع الأخذ في الاعتبار وسائل التقنية الحديثة وهى فئة متحفظة، ورغم الاقتناع بهذا الاتجاه، إلا أننا لا نجد الأمر بهذه السهولة ولا بذلك اليسر، فالبرغم من المحاولات المتعددة لتحقيق المعاصـــرة مع الاعتبارات التراثية إلا أن النذر اليســـير هو ما نجح في الوصـــول إلى الهدف المنشود.

تعريف المناطق المتجانسة عمرانياً

ونعنى بها في حديثنا هذا المناطق التي تتسم بالتوافق والانسجام والتناغم في مكوناتها المعمارية. هذا التوافق الذي تتميز به ونجده جليا في المناطق التاريخية التراثية والتي قدر لمصر أن تحتضن العديد منها، حيث امتزجت الحضارة المصرية مع الحضارات الوافدة إليها لتخرج ميراثاً مكتسباً لا يقل غنى عن ميراثها الموروث. ورغم اغتراب معظم هذه المناطق وبعدها عن الطرز المصرية والعربية فكراً وتخطيطا إلا أنها تمثل نموذجاً واضحاً للوحدة والانسجام بالإضافة إلى الفخامة ورفاهة الحس ورفاهية الحياة، وقد قضت مقتضيات التطور أن تصبح تراثاً هاماً من تاريخنا العمراني عايشناه وألفناه فأصبح إطاراً لحياتنا ومركزاً لنشاطنا ومثاراً لإعجابنا.

هذه المناطق تحتوى العديد من المباني الأثرية والتاريخية الرائعة ، وطبقا للمادة رقم (١) بميثاق فينيسيا الدولي، إن مفهوم المباني التاريخية يشـمل ليس فقط العمل المعماري الواحد بل يشـمل أيضـاً الموقع الحضـري أو الريفي الذي يكتشـف فيه دليل لحضـــارة معينة، أو على تطور مهم أو حدث تاريخي معين، وينطبق هذا ليس فقط على الأعمال الفنية العظيمة بل أيضـــاً على الأعمال القديمة الأكثر تواضـعاً والتي اكتسـبت أهمية ثقافية مع مرور الزمن. وتتسـم هذه المناطق بالخصـوصـية العمرانية أو المعمارية أو كليهما معاً، ولفظ " الخصـوصـية" هنا يعنى التفرد بصـفات وخصـائص معينة تعكس خصـوصـية ذلك العمران وتفرده، وتميز منطقة معينة بعمارة لها شكل ولون وتكوين وذاتية هي ركائز هذه الخصوصية والشخصية المميزة لتلك المناطق (سيف اليزل، ١٩٩٢).

وتميز وتجانس المناطق العمرانية له أسـباب عديدة، قد ينبع مثلاً من اسـتخدام أشـكال خاصـة ومتميزة نابعة من بيئة هذه المناطق ومحيطها الحيوي، وقد يكون هذا التميز والتجانس نابع من نشاط خاص متعلق بالمكان. وهذه الأماكن يكون لها صورة ذهنية خاصة ترسخ في ذاكرة الناس وتجعلهم قادرين على التعرف عليها بسهولة.

وإجمالاً يمكن تعريف المناطق التاريخية التراثية بالتالي:

"هي نتاج مادي وملموس لتفاعل العناصـر الطبيعية مع القوى البشـرية ليظهر في صـورة مجموعات أو مسـتقرات سـكنية خلال فترات تاريخية وذلك تحت تأثير المحددات أو الإمكانيات الطبيعية المتاحة إضـــافة إلى القوى الاجتماعية والاقتصـــادية والثقافية ســـواء داخلية أو خارجية" (the IV th European conference of Ministers responsible for the cultural heritage, 1996).

وتقوم الأجهزة المحلية المســـئولة بتحديد درجات الأهمية لهذه الحيزات وذلك من خلال مجموعة من الخبراء في مجالات التخطيط والعمارة والهندســة المدنية والتاريخ والآثار. وقد اكتســبت هذه المناطق صــفة التجانس والتناغم للعديد من الأســباب نناقشها على الصفحات التالية، ولكن يجب أولا أن نتعرف على العناصر المكونة لتلك المناطق والتي أكسبتها صفة التجانس.

المناطق المتجانسة عمرانيا من وجهة النظر التحليلية

المساحة التفاعلية بين المبنى الرئيسي وما يحيط به

إن المساحة الخالية بين أي أثر أو مبنى تاريخي وما يحيط به يجب أن تفي بمتطلبات الحياة العملية من ناحية وبالمتطلبات الجمالية من ناحية أخرى، بالرغم من أن متطلباتها تتعارض وتتناقض في أغلب الأحوال. وأساس الناحية العملية هو الحركة لأنها تهتم بالدرجة الأولى بحركة المرور العامة سواء للبشر أو السيارات أو ممارسة الأنشطة المميزة للمكان، أما من الناحية الجمالية فهي تسعى على العكس من ذلك إلى الراحة والسكون، وهما شرطان أساسيان للتمتع برؤية العمل الفني بالكامل، والأولوية بلا شك تكون للناحية الجمالية لأنه عندما تنال الناحية الجمالية الرضا فإن هذا الرضا نفسه ينعكس على الناحية العملية، ذلك أن الجمال الحقيقي المطلق والواقعي لا يوجد إلا إذا تكاملت فيه الناحية العملية. وإذا نظرنا بعين الاعتبار من هذه الزاوية إلى المساحة الخالية فإنها تتخذ عند حل المشكلة أهمية من الدرجة الأولى، إذ أنها تحدد وتضع نقاط مسافة الملاحظة، وتحدد للمشاهدين أفضل

www.manaraa.com

الأماكن لكشف ومشاهدة أهم العناصر المعمارية التي يتميز بها المبنى والبيئة المحيطة به (عبادة، ٢٠٠٠).

كما أن لهذه المساحات والساحات دور عظيم في حياة الناس حيث أتاحت لهم فرص التجمع واللقاء وساعدت على استمرارية التقاليد وتأصيل العادات وأنضجت الثقافة وأيقظت روح الشعب. فشهدت الاحتفالات القومية والحشود الدينية والعروض العسكرية ومواكب السلاطين والأمراء والانتفاضات الشعبية والثورات القومية التي تركت بصماتها على صفحات التاريخ (سيف اليزل، ١٩٨٩).

المحيط الذي يتكون من منشآت للاستخدام العادي أو مباني ذات قيمة

ويقصد به كل ما يحيط بالمبنى الرئيسي التاريخي من منشآت سواء كانت هذه المباني منشآت عادية أو مباني تماثله في الأهمية والقيمة. ودور المحيط من وجهة النظر العملية أو الفنية أو من المنظورين معاً يتمثل في إعطاء قيمة للمبنى الرئيسي، حيث أن المحيط ما هو إلا إطار لهذا العمل ولذا فلا ينبغي أن يطغى على العمل نفسه.

وهذا المفهوم الذي يعطى للمبنى الرئيسي الأهمية الأولى والذي تم تطبيقه بدقة بالغة على ما هو ثانوي أو رئيسي في العصور التي لعب فيها فن العمارة دوراً رئيسيا وظهر كفن له قواعده وطرزه الثابتة، هذا المفهوم معرض اليوم لمخاطر ما نطلق عليه المستحدثات المعمارية المتوالية، والأمثلة على ذلك كثيرة، فالعديد من الآثار يتم ترميمها والمناطق يتم الارتقاء بها وننفق عليها الملايين ولكننا لا نهتم بالمحيط أو بمعنى آخر بالتجانس والتوافق، بدون وعى بأن هذا المحيط له تأثير كبير.

ولذا فإنه من الضروري أن يتوازن اهتمامنا بالمبنى الرئيسي مع اهتمامنا بالمحيط حيث أن كلا منهما يكمل الآخر ويلعب دوراً هاما في التناغم والتوافق. وإذا انتقلنا إلى نقطة أخرى وهى في حالة تهدم المباني الأصلية المحيطة بهذا المبنى الرئيسي، فهناك رأى ينادى بإعادة بناء المحيط الأثري بنفس طراز المبنى الأصلي، رغم تهدمه أو تهدم الأجزاء الرئيسية منه، متبعين في ذلك نظرية فيولييه لي دوك** VIOLET LE DUC في الترميم والمحافظة على التراث المعماري، والتي تعتمد على كفاءة المرمم في تقليد العصور السابقة، والتي كانت سبباً في هدم مفهوم التوافق البيئي، حيث أن هذا الأسلوب يوحى بالرضا من ناحية المظهر فقط، لكن النتيجة تكون صعبة التحقيق، لأن الفنان القادر على التعمق في فهم طراز المبنى والإحساس به إحساسا كاملاً يستطيع خلق محيط له نفس الطراز ودون أن يكون نسخة ممسوخة منه.

حدود الحيز، والشوارع التي تؤدى إليه

إن الشوارع المؤدية إلى المحيط الأثري أو التاريخي لا تعتبر فقط بمثابة الشرايين التي تنقل الحياة إليه، بل إنها تسهم بشكل كبير في الإيحاء الذي تتركه في نفس الزائر. ومن الأمثلة على أهمية الشوارع ودورها في إبراز المجموعات المعمارية المختلفة نذكر ميدان الحسين وكيف يصل إليه الزائر من الشوارع الضيقة لحى الجمالية وخان الخليلي ليفاجأ بذلك الميدان الواسع والمسجد الضخم الرائع. وبذلك يتثمل الدور الإيحائي والجمالي لهذه الشوارع، فالمسجد بكل جلاله وجماله يظهر في النهاية ويكون ظهوره الكامل بشموخه وعظمته فيكون له تأثيره العاطفي والجمالي على جماهير الحجاج إليه. ومثال آخر على أهمية الشوارع في إبراز المبنى الرئيسي، ما حدث في ميدان كنيسة القديس بطرس (الفاتيكان) بروما. فكان الطريق المؤدى إلى ساحة الكنيسة طريقاً ضيقاً يسلكه زائر المكان ليفاجأ بعد انتهاء الطريق أنه أمام الساحة الضخمة بمجموعات أعمدتها الكبيرة والكنيسة العريقة بقبتها التي أقامها مايكل أنجلو، إلا أن الصلح الذي تم بين الفاتيكان والحكومة الإيطالية في عهد الفاشية دفع الحكومة إلى إزالة حي كامل هو I BORGHI والذي كان يقع أمام ساحة الكنيسة ، وذلك لتنال الحكومة ود الفاتيكان، وأقامت مكانه الشارع الواسع المعروف اليوم باسم شارع الصلح VIA DELLA CONCILIAZIONE والذي أفقد ساحة الميدان ومسلتها الفرعونية ومجموعة أعمدتها والكنيسة ذاتها الكثير من الرونق ومن عناصر الإيحاء التي كانت لها قبل إقامة هذا الطريق (عبادة، ٢٠٠٠) شكل (١).

Published by Digital Commons @ BAU, 2010

www.manaraa.com

شكل ١: ميدان القديس بطرس ـ روما (الوضع القديم) & (الوضع الجديد)، (عبادة، ٢٠٠٠).

توافق وتجانس المباني في الحيزات التاريخية والأثرية

تنقسم القيمة الجمالية للعمل الفني إلى شقين، شق ذاتي ويختص بقيمة العمل الفني وشق خارجي والمقصود به البيئة المحيطة به وهناك مجموعات أثرية مختلفة الأحجام والألوان والعصور وطرز البناء إلا أنه يجمعهم توافق وتجانس محبب للنفس. ويقصد بكلمة توافق مغزى أوسع من المعنى التقليدي للكلمة ـ التماثل، التطابق، التوالي، الإيقاع، وتجدر الإشارة إلى أن الإدخال الطبيعي لأعمال جديدة في البيئة المعمارية ينتج كل مرة تركيباً جديداً يكون مقبولاً إذا كانت الإضافة لها قيمتها وبهذا فإن توافق المكان يكون عبارة عن محصلة لكل القيم الفنية الخاصة بكل مكون من المكونات أكثر من كونه ناتجاً عن العلاقات المتبادلة بينها.

ومن السهل أن نلاحظ في التكوين لهذه البيئات الأثرية الرغبة في إيجاد توافق بين جميع المباني من خلال تقليد الأشكال، أو من خلال وضع الكتل وضعاً منتظماً، وكثيراً ما تتبع المباني المختلفة طراز عصرها دون أن تنظر بعين الاعتبار إلى طراز المباني السابقة عليها، وبذلك ترتب حسب ضرورات حجمها وحسب إمكانيات الأرض المتاحة، ولكن في كثير من الأحيان يبدو عدم الانتظام ظاهرياً لأن التكوينات رغم تأثرها بأمور تتعلق بالنواحي العملية تخضع لمعايير جمالية. كما يجب علينا دائما أن نحاول إعادة المعطيات المكانية بموقع تاريخي لتصبح أقرب ما يكون إلى ما كانت عليه أصلا فإن الأصالة تدفعنا إلى عدم تحريك الأثر (عبد الغني، ١٩٩٠)، ولعل أفضل الأمثلة على ذلك هو تلك المنازل التي تم إعادة بنائها في ميدان نافونا بروما ـ إيطاليا، شكل (٢).

www.manaraa.com

شكل ٢: ميدان نافونا ـ روما بإيطاليا بعد إعادة بناء المنازل المحيطة به، (عبد الغني، ١٩٩٠).

وتجدر بنا الإشارة إلى عدم تجانس بعض المباني الأثرية إذا ما نظرنا إليها كآثار منفردة، ولكننا نلاحظ كذلك أنها قد اكتسبت صفة التجانس مع مرور الزمن ومع اعتياد عين المشاهد العادي على رؤيتها. وهناك أمثلة متعددة لهذا التجاور غير المنتظم الذي يعطينا إيحاء مقبول، منها تجاور مبنى أوفيتسى UFFIZZI مع مبنى القصر القديم PALAZZO VECCHIO في مدينة فلورانس بإيطاليا. ان مبنى أوفيتسى ذو الطراز القوطى الذي يتسم بالضخامة والصلابة وعمارته الرأسية والذي توجد به فتحات صغيرة نسبيا ويعلوه برج عال، مبنى من الأحجار القوية الساخنة نجد بجواره القصر القديم الشاسع PALAZZO VECCHIO الذي يتسم بطراز عصر النهضة بعمارته الأفقية والذي يتسم بقوة وجود الظل والضوء في آن واحد ومبنى بحجر ناعم بارد ويطل على منتصف الميدان وتحيط به البواكى بالكامل وبه نوافذ كثيرة وشرفات واسعة، ومع هذا فإن منظر القصر القديم الذي يطل بزاوية على ميدان أوفيتسى الطويل والضيق كأنه شارع والبرج المزخرف المضيء الذي يرتفع في السماء والذي تحيط به الأسقف الطويلة المظللة يشكل لوحة ذات جمال آخذ تكشف لنا عن قدرة فنان كبير ذو عين خبيرة، شكل (٣).

شكل ٣: تجاور مبنى أوفيتسى مع مبنى القصر القديم ـ فلورانس ـ إيطاليا، (عبد الغني، ١٩٩٠).

وإذا ما مررنا بقناة CANAL GRANDE بمدينة فينيسيا بايطاليا فإننا نجد أن المباني التي صممت بحرية حسب الطرز الشائعة في مختلف العصور تتوالى دون أن تهتم بوجود توافق متبادل بينها. وهكذا فإننا نجد بجوار المباني القوطية مباني تنتمي إلى عصر النهضة وعصر الباروك، والأمثلة على ذلك كثيرة وهى في أغلب الأحيان لا تهتم بعدم التوافق في الأشكال والمساحات واللون، شكل (٤).

Published by Digital Commons @ BAU, 2010

www.manaraa.com

شكل ٤: مبنى القصر الذهبى (كازا دى أورو) وقصر جوستى - فينسيا - إيطاليا، (عبد الغني، ١٩٩٠).

إن تلخيص المشكلة بهذا الشكل يراد به إظهار تعقد المسألة تعقيدا كبيراً، فبينما يحتاج الأثر وما يحيط به إلى البقاء والثبات شاهدا للأجيال التالية، فإن حياة المدينة المليئة بالنشاط تتطلب وتحتاج إلى التحول والتطور المستمر. وتظهر احتياجات ومتطلبات جديدة تستدعى وجود مباني ووظائف جديدة وهنا يبرز تساؤل هام: هل ينبغي أن تتم عملية الحفاظ وتجديد المحيط الأثري حسب الظروف؟ أم ينبغي أن تخضع لبعض القوانين العامة التي تساعد من لديهم الموهبة على القيام بهذا العمل ولذلك يجب أن نبدأ بدراسة أسباب التوافق وعدم التوافق الشكلي للبيئة المعمارية وكيف يمكن التعايش بين العمارة الجديدة والقديمة.

التوافق وعدم التوافق البيئي لعمارة المناطق القديمة مع المباني الجديدة

إذا نظرنا إلى الأمثلة التي تبين التعايش بين العمارة الحديثة والقديمة يتضح لنا مدى صعوبة التوافق بينهما، ويمكن الإيحاء بإدخال "الحديث" في البيئة التاريخية ولكن الموضوع عملياً بقدر كبير من الصعوبة، كما تبرهن على ذلك أمثلة كثيرة لم تنجح في عملية الإدخال هذه. حيث تعتمد النتيجة على ظروف كثيرة منها إمكانيات المهندس الممارى العملية وصعوبة الموضوع، وغيرها من الأسباب. وحتى يتم الحكم بطريقة عادلة يجب أن ندرس جميع هذه الظروف والأسباب. فإذا كان المهندس المعماري قد أخذ في اعتباره عظمة إحدى البيئات الأثرية تقديراً منه للمصمم الأصلي للمبنى وتخلى في إيثار عن جزء من شخصيته وحريته، يكون قد اتخذ قرارا جريئا لإنجاح العمل معمارياً. هذا النجاح يتجلى لنا في مشروع مبنى البرلمان الألماني الجديد في مدينة برلين، فقد آثار هذا المشروع الذي يرمز لتاريخ ألمانيا والدور الذي لعبته في حربين عالميتين غيرت الكثير من المفاهيم والقيم في أوروبا بل في العالم أجمع والمشروع هو في الحقيقة ترميم مبنى البرلمان الألماني القديم الذي أصاب الدمار أجزاء هامة منه إبان الحرب العالمية الثانية وتعرض لحريق كبير في عام ١٩٣٣م. فاز في مسابقة تصميم المشروع المعماري البريطاني نورمان فوستر الذي نجح في إعادة هذا المبنى التاريخي إلى دائرة الضوء وجعله رمزاً جديدا لمدينة برلين. ولقد اعتمد فوستر على استخدام التقنيات الحديثة في خلق فراغات واسعة ومفتوحة ومعالجة طريقة ارتباط المبنى بالموقع. وتبنى فكرة القبة الزجاجية فوق القاعة البرلمانية معيداً للأذهان قبة بول والوت التي أنشأها على قاعدة مربعة من الحديد والزجاج والتي أزيلت بالكامل عام ١٩٤٥. ولهذه القبة عدة وظائف، أولها السماح لزوار البرلمان بالصعود إليها والتجول فوقها بواسطة منحدر حلزوني يأخذ شكل القبة ويدور حولها. أما الوظيفة الثانية فهى عكس الإنارة الطبيعية والصناعية إلى أسفل القاعة بواسطة قمع مكون من مرايا عاكسة، وعكس الإنارة الصناعية المثبتة أسفل القبة إلى الأعلى ليشكل الضوء المنبعث من القبة إلى الخارج معلماً ليلياً بارزاً لمدينة برلين. كذلك ثبت حاجز متحرك لتوفير الظل يدور حول القمع لمنع الوهج من ضوء الشمس والحرارة الناتجة من الوصول إلى القاعة. أما الوظيفة الثالثة فهي المساعدة على تهوية القاعة حيث تحتوى بداخلها على معدات لتنقية هواء القاعة. وبذلك نجد أن القبة لا تمثل مجرد إضافة للمبنى بل إنها تعتبر إنجازا تكنولوجياً متقدماً في حد ذاتها (VRheritage, 2002)، شكل (٥).

ومن المثال السابق يتضح لنا أن المهندس المعماري الذي يتصدى للبناء في بيئة قديمة يجب عليه أن يضع نفسه موضع الفنان التشكيلي الذي يجب عليه أن يكمل زخرفة إحدى القاعات، فلكي يحصل على توافق بيئي مرضى فإنه يجب عليه أن يبحث عن هذا التوافق البيئي بأن يرسم البيئة التي يدخل فيها عمله بالألوان من وجهات نظر مختلفة، وينبغي أن يظهر عمله وكأنه نبت من المكان وليس دخيلاً عليه. وليس من السهل أن نشير إلى الطريق الذي ينبغي سلوكه للوصول إلى التوافق البيئي، ودائما يبحث المعماري عن أنسب الطرق مستخدماً في ذلك حسه وإدراكه. والنجاح يكون صعباً للغاية بالنسبة لأولئك الذين يختارون أشق الطرق وأصعبها، أى طريق التضاد المقبول أو غير المقبول بدلاً من طريق التوافق. ولابد أن يشتمل هذا التضاد على اللون والشكل اللذين تتميز بهما المباني الحديثة وعلاقتها بالمباني القديمة، فإذا كان التضاد مقبولاً يكون النجاح قد حالف المصمم، أما إذا تصورنا مثلاً إدخال مبنى من الخرسانة وفتحات زجاجية كبيرة أو واجهة من البياض الأبيض الناصع أو من الرخام في بيئة تاريخية أو أثرية لا يناسبها هذا النوع فإنه يكون قد خلق تضاداً غير مقبول (عبادة، ٢٠٠٠).

www.manaraa.com

وتلخيصاً لما سبق نجد أنه في جميع الحالات يكون على المعماري في جميع الحالات أن يواجه مشكلة واحدة تقريبا وهى مشكلة عملية الإدخال للمباني الحديثة بجوار أعمال أخرى قائمة وتزداد المشكلة في الحيزات التاريخية على وجه الخصوص لكون العمل المعماري القائم غالباً ما يكون تاريخي أو أثرى أو قديم.

شكل ٥: القبة المغطية للقاعة الرئيسية للبرلمان الألمانى الجديد، برلين، ألمانيا، (VRheritage, 2002).

أسس التوافق البيئى لعمارة المناطق التاريخية مع المباني الجديدة

من الأمثلة السابقة نستطيع أن نستخلص الأسس التي يجب أن تبنى عليها عمليات الإدخال الحديثة لمباني جديدة في البيئة المعمارية القديمة، ويقصد بهذه المباني الجديدة المباني تلك التي نتجت عن تغير أسلوب الحياة في البيئة المعاصرة وظهور احتياجات جديدة لم توجد من قبل. هذه المباني سوف تحل محل مباني قديمة آيلة للسقوط، أو مناطق خربة سوف تزال أو غير ذلك من الأسباب التي تستدعيها متطلبات العصر. وفي هذه الحالة تواجه المعماري مشكلة أساسية في عمليات التصميم والتخطيط في هذه الحيزات لإيجاد التجانس والتناغم البيئي للعمارة الجديدة مع التاريخية القديمة.

توافق اللون

للون أهمية عظمى في التوافق البيئي. ومن الخطأ التقليل من أهمية التوافق البيئي اللوني مما يكون له تأثير سلبي في كثير من الأحيان. ففي بعض الأحيان نرى في بعض الأحياء القديمة التي تتسم بالألوان الساخنة وتتسم فيها المباني بالأبعاد المتوازنة وبالشكل المتناسق واستخدام مواد البيئة ـ مباني عالية ذات ألوان ناصعة أو باردة وهى بذلك تخلق تأثيراً غير مقبول على الإطلاق وخاصة كلما اقتربت من المباني القديمة التي أثر عليها الزمن فصارت قاتمة باهتة.

ومن وجهة نظر أخرى وكما للون دور هام في التوافق بين الجديد والقديم فإن للون يمكن أن يلعب دورا في إيجاد التناسق والتوافق وإعادة التشكيل للمباني قبيحة الشكل الغير متجانسة وذات الهيئة غير المرضية بحيث تصبح منسجمة ومتناغمة مع الطبيعة ومع الرغبات والأحلام الفردية لمستخدميها، وهو الاتجاه الذي تبناه هوندرت فاسر *** والذي أدى به إلى ابتكار حرفة

Published by Digital Commons @ BAU, 2010

www.manaraa.com

معمارية جديدة اشتهر بها طويلاً سميت بحرفة "طبيب العمارة". ويفترض فاسر أن القبح المعماري هو أعظم وأخطر الكوارث البيئية المحيطة بالإنسان، وفي أحد مشروعاته الأكثر إثارة وجدلاً والمعروف باسم مسكن هوندرت فاسر بفيينا، والذي قام بتنفيذه عام ١٩٨٦، حيث يمثل المبنى مجموعة سكنية صغيرة تتكون من عدد من الوحدات السكنية وترتبط فيما بينها ببعض المباني القائمة. وقام فيه بزراعة الأشجار في أدوار المبنى المختلفة وتطوير التشكيل العام للمبنى، وتصميم نوافذه وتغيير الواجهات الصارمة للمبنى إلى تكوينات فنية غير منتظمة تتمتع بالحيوية والجاذبية، كما ركز على ابتكار العناصر المعمارية من أبراج مختلفة وأعمدة ذات تشكيلات متنوعة. وأصبح المبنى بعد ذلك مزارا سياحيا شهيراً بالمدينة يؤكد على أن اللون في العمارة لابد أن يتكامل مع الطبيعة ويتوافق معها أو أن يكون مقابلا لها ومتباينا معها بأساليب مناسبة وجيدة (Struve Geodetic Arc, 2005)، شكل (٦).

شكل ٦: من أعمال هوندرت فاسر، - ١٩٨٦ بفيينا - النمسا، (Struve Geodetic Arc, 2005).

توافق الكتلة

للكتلة أهمية كبيرة في تشكيل المنظر الخارجي للمدينة، وإذا نظرنا لتكوين الكتل في مدن العصور الوسطى نجدها في الغالب غير منتظمة وغير واسعة وقد احتفظت البيئات في الغالب بهذا الشكل حتى في عصور التحولات الإنشائية. ولهذا فإن المباني التي تتميز بضيق نسبي في الفراغ نجدها تتمتع بمنظر وخلفية طبيعية أكبر. ومن الواضح في هذه البيئات أن المنشآت الجديدة المحتمل أقامتها يجب أن تحترم هذه الأسس، فليس من المناسب على سبيل المثال أن تحل عمارة سكنية عالية الارتفاع محل سلسلة من البيوت الصغيرة. وعلى كل حال فإن المنشئات الجديدة يجب أن تأخذ في اعتبارها نسب المباني القديمة حتى لا تبتعد عنها كثيراً سواء في الامتداد أو الارتفاع. وفي البيئات التي تتسم بالارتفاع وبالانتظام فإنه من الممكن السماح بإنشاء مباني كبيرة على أن يكون ذلك بعد دراسة واعية لما يحيط بها من مباني، وعدم احترام هذه القاعدة يصيب المباني التاريخية بخسائر كبيرة ويبعدها عن التجانس والتناغم الذي تحدثنا عنه من قبل.

توافق الشكل

للشكل أهمية كبيرة في التوافق البيئي، ولكن ربما يكون تأثيره أقل من تأثير الكتلة واللون، بشرط ألا يكون متنافراً للغاية، ولهذا فإنه لن يكون من المناسب في بيئة تتكون من مباني قديمة ـ تسيطر فيها الكتلة على الفراغ ـ إدخال مباني ذات واجهات بها فتحات زجاجية واسعة. ومن الأشياء أيضاً التي تجعل التوافق بين الحديث والقديم صعباً التناقض الواضح في المظهر الخارجي بين النوعين مثل الأعمدة الخرسانية بشكلها الواضح عندما تكون موضوعة بجانب الواجهات الملساء المبنية من الخامات البيئية وكذلك البواكي العادية ذات الفتحات المسطحة بجانب البواكي المزخرفة ذات العقود، والجدران العارية العلبية الشكل بجوار الواجهات المزخرفة، والأشكال الجديدة المعقدة بجوار الأشكال القديمة ببساطتها وهدوئها. ولكن ومن ناحية أخرى يمكن أن يتسم الجديد بالحداثة واستخدام أحدث الأساليب والتقنيات الحديثة، ومع ذلك نجده متوافقا ومنسجما مع المباني الأصلية ويكون المعماري في هذه الحالة قد وصل لأعلى درجات التوافق البيئي. والأمثلة على ذلك عديدة نذكر منها التقنيات الحديثة التي استخدمت في مشروع توسعة الحرم النبوي الشريف بالمدينة المنورة حيث استخدمت لتغطية تلك المساحات قباب منزلقة ومظلات متحركة استخدمت فيها أحدث تكنولوجيا الصناعة والإنتاج الأوروبي المتطور، ومع ذلك تحلت بروح الفنون التراثية العربية للحفاظ على شخصية وقدسية المكان والطابع البيئي المحلى. وبذلك تكاملت مع الطابع المعماري للمسجد النبوي في انسجام واضح (عزمي، ١٩٩٢)، شكل (٧).

www.manaraa.com

شكل ٧: القباب المنزلقة والمظلات المتحركة ـ توسعة الحرم النبوى الشريف بالمدينة المنورة، (عزمي، ١٩٩٢).

وسائل التعامل مع المكون التاريخي بالأماكن المتوافقة عمرانياً

من الصعب وضع قاعدة تصميمية محددة لمعالجة المشاكل الناتجة من تجاور المباني المختلفة الأزمنة بينما يمكن إيجاد مداخل للحلول والمعالجات تكون بمثابة المؤشرات للعملية التصميمية بغرض الحفاظ أو التطوير أو الارتقاء.

وهنا ومن جميع الأمثلة السابقة لا نسطتيع أن نقر بأن هناك أسلوب أو قاعدة تصميمية محددة لمعالجة المشاكل الناتجة عن هذا التجاور. فإن المفهوم عن التصميم أنه رؤية أو تجربة. وهذا ينفي إمكانية صياغة أي قاعدة ثابتة للتصميم.

ويمكن حصر تلك المشكلة في شقين:

أولاً: تحديد المبرر المنطقي لدواعي التطوير سواء بإضافة العمل المراد إقامته وظيفياً وتشكيلياً.

ثانيا: تحديد الوسيط الرابط سواء أكان ماديا أو معنويا بين العمل القائم والمراد إقامته (Waddenzee, 2006).

وهذا التوافق المطلوب بين العملين يتوقف إلى حد بعيد على أسلوب المصمم في المعالجة ودرجة حساسيته للظروف الخاصة بالحيز ودرجة تمكنه من إيجاد الوسيط الرابط بين أعماله المعاصرة والمباني القائمة. ويمكن تحديد وحصر وسائل التعامل المحتملة لتحقيق التجانس والتوافق المطلوب في:

توافق بالتطابق

أي مطابقة العمل المعماري للمبنى الأثري تمام المطابقة إنشائياً وتشكيلياً.

توافق بالتباين

أي المخالفة والمفارقة بين العمل المعماري والمبنى الأثري.

توافق بالموافقة (الطابع)

أي التوازن بين العمل المعماري والمبنى الأثري من حيث طرق الإنشاء ومواد البناء وروح النمط التشكيلي.

توافق الحياد

المقصود به أن العمل المعماري يكون في وضع محايد تشكيليا أي يتمشى مع أي نمط من المباني الأثرية.

الوصلة

المقصود به أن العمل المعماري يكون بينه وبين المباني الأثرية عامل وسيط آخر سواء كان هذا العامل مبنى أو فراغ أو أشجار.

توافق بالاختفاء

المقصود به أن العمل المعماري يكون غير ظاهر على الإطلاق ولا يمكن رؤيته في منظر واحد مع العمل الأصلي كأن يكون تحت سطح الأرض مثلاً.

Published by Digital Commons @ BAU, 2010

www.manaraa.com

الخلاصة والتوصيات

إن المناطق المتجانسة معماريا وعمرانيا والبيئة المشيدة الصحيحة تستطيع أن تشيع روحاً طيبة صالحة في المجتمع، وتمتلك مصر ذخيرة ضخمة من المباني ومن هذه المناطق التاريخية التي تعد ثروة معمارية وحضارية بجانب كونها عنصر جذب سياحي وتنمية للاقتصاد القومي إلا أن معظم هذه المناطق تعرضت في الآونة الأخيرة لتغيرات اجتماعية وحضارية أدت إلى التدهور في النسيج العمراني، لذا يجب الوضع في الاعتبار أن القيم التراثية لها عائد مادي بجانب العائد الثقافي فيجب مراعاة المدخلات الحديثة بحيث تتوافق مع البعد التاريخي والبيئي وتكون ذات كفاءة وظيفية مع تحقيق الطابع المعماري الجذاب المتوافق مع ما حولها من عمران وتاريخ.

وفي النهاية سنركز في التوصيات على ما يمس القيم الجمالية العمرانية والمعمارية في المناطق المتجانسة عمرانيا، ونشر الثقافة البيئية بهدف تنقيتها من القبح والتلوث المادي والمعنوي والحفاظ على التراث العمراني، وعلى سبيل المثال:

- معالجة القصـــور في القوانين واللوائح والقرارات المنظمة للتخطيط والتنمية العمرانية وأعمال البناء وتوســـعة وتعديل الشوارع، بحيث تشمل كل العناصر التي تؤثر على القيم الجمالية للمناطق المتجانسة عمرانيا ومعماريا، وتراقب بشكل صارم أي أعمال جديدة مضافة أياً كان مستوى ونوعية وحجم هذه الأعمال، وخاصة الأعمال التي تتعلق بإعادة بناء أي محيط أثرى.
- منع تداخل واختلاط الأنشـــطة المتنافرة في المناطق التراثية وضـــرورة تحديد كثافتها البنائية طبقاً لمواقعها وطبيعتها ونوعية الأنشـــطة التي تمارس فيها. مع الحفاظ على الأنشـــطة التقليدية والحرفية التي تحفظ لهذه النوعية من المناطق روحها ورونقها.
- الســيطرة على مواد وألوان واجهات المباني ومظهرها المعماري خاصـــة بالنســبة لتلك التي تبنى وســط أو بالقرب من المناطق التراثية والتاريخية.
- منع التصريح للسكان بطلاء واجهات وحداتهم السكنية (الشقق) الموجودة أو المطلة على مناطق تراثية بألوان متنافرة مع الخطة اللونية لسائر مباني المنطقة.
- تنظيم إقامة المسابقات المعمارية للمشروعات ذات الطابع القومي والخاصة بالإضافات في الأماكن التراثية والتي تستلزم التعاون بين المعماري والمخطط ومصمم تنسيق الموقع والفنان التشكيلي لإخراج مشروعات متكاملة تضيف إلى انسجام وتناغم هذه المناطق وتفي في نفس الوقت بمتطلبات العصر.
- تشجيع الهيئات العلمية والفنية المعنية لمعاونة الجهات الرسمية في وضع أسس الارتقاء بهذه المناطق وصيانتها وترشيد توظيفها في الحياة اليومية، ويمكن الاستفادة من تجارب الدول المتقدمة في هذا المجال مثل (باريس ـ روما ـ فينيسيا ـ فيينا ـ فرانكفورت).
- تنظيم جولات تعليمية إرشـــادية وإعلامية للمناطق التاريخية في المدن، يتولى الشـــرح متخصـــصـــون في الآثار والعمارة والفنون.
- إثارة الحوارات العامة المفتوحة حول تصميم البيئة المشيدة والحفاظ على المناطق المتوافقة عمرانيا لإيقاظ الوعي بمحيطنا العمراني الذي نعيش فيه وإشعال الرغبة لدى عامة الناس بالمتابعة والملاحظة والتقييم.

المراجع والحواشي

Bernard M., Feilden (1994), CONSERVATION OF HISTORIC BUILDING – Butterworth- Heinemann Ltd – oxford-Great Britain.

HELSINIK DECLARATION ON THE POLITICAL DIMENSION OF CULTURAL HERITAGE CONSERVATION IN EUROPE - the IV th European conference of Ministers responsible for the cultural heritage, 30: 31 May 1996.

VRheritage.org — Documentation of World Heritage Sites (inactive since 2002)

Struve Geodetic Arc, shared between Belarus, Estonia, Finland, Latvia, Lithuania, Moldova, Norway, Sweden, the Russian Federation and Ukraine, (2005).

Waddenzee, coastal tidal region in the Netherlands, Germany and Denmark, 2006.

إنارة البرلمان الألماني الجديد ـ مقال منشور ـ مجلة البناء ـ العدد ١٢٤ ـ ديسمبر ٢٠٠٠.

الزينى، يحيى (٢٠٠٢)، البيئة العمرانية في المدينة المصرية والوعى الغائب ــ مقال منشور ــ معرض عام عن " العمارة والفن" ــ مركز الهناجر للفنون ـ دار الأوبرا المصرية ـ ٢٨ مارس: ٥ أبريل.

عاشور، محمد (١٩٩٨)، التقنيات الحديثة في مشروع توسعة الحرم النبوى الشريف بالمدينة المنورة ـ مجلة مدينة ـ العدد ٣ـ سبتمبر.

عبادة، جلال (٢٠٠٠)، البناء يتبع الفن والطبيعة والخيال ـ عمارة هوندرت فاسر ـ مقال منشور ـ مجلة مدينة ـ العدد ١٤ ـ أغسطس.

عبد الغنى، جمال (١٩٩٠)، تنسيق الأماكن التاريخية ـ رسالة دكتوراة ـ كلية الفنون الجميلة ـ جامعة الإسكندرية.

عزمى، حسام (١٩٩٢)، ملاءمة المبنى الجديد للبيئة التاريخية ـ بحث منشور ـ مجلة عالم البناء ـ العدد ١٣٣.

سيف اليزل، سمير (١٩٨٩)، البيئة المعمارية ـ الدار الفنية للطباعة ـ القاهرة.

سيف اليزل، سمير (١٩٨٩)، الترميم العمارى ـ إحياء التراث المعمارى والفنى ـ الدار الفنية للطباعة ـ القاهرة.

www.manaraa.com

ميثاق فينيسيا الدولى لصيانة وترميم المباني والمواقع الأثرية ـ المؤتمر الدولى الثانى لمهندسى وفنى المباني التاريخية ـ فينيسيا ١٩٦٤
الزينى، يحيى (١٩٩٦)، الحفاظ على القيم الحضارية في البيئة العمرانية والمعمارية ـ مقال منشور ـ مجلة عالم البناء ـ العدد ١٧٨ ـ مايو.

* فيكتور هورتا (١٨٦١ ـ ١٩٤٧) ـ مهندس بلجيكى ـ رائد مدرسة الفن الجديد

** فيوليه لى دوكViolet Le Duc- مهندس معمارى فرنسى- له فلسفته في الترميم والتي تقوم على ضرورة أن يضع المرمم ذاته أمام العمل وكأنه مصممه الأصلى فيفكر في حل المشاكل كما كان سيحلها المصمم الأصلى دون أن يكون له أى رأى أو تدخل شخصى أو ذاتى.

*** هوندرت فاسر- فنان ومصور نمساوى- تبنت أعماله مبادئه الفلسفية ضد الاتجاهات العقلانية التي سادت في أوروبا والعالم في الخمسينات وظهرت جميع أعماله تحمل مبادئ العمارة العضوية وأهمية البناء بما يجعل العمارة متجانسة مع البيئة الطبيعية.

Published by Digital Commons @ BAU, 2010

www.manaraa.com